

مدخل إلى الأنثروبولوجيا

تمهيد

تهتم الأنثروبولوجيا بدراسة الإنسان ككائن اجتماعي يحيا في مجتمع تسوده مجموعة من النظم والأنساق تنوب في ثقافة أو ثقافات معينة، فالأنثروبولوجيا لا تدرس الإنسان بمعزل عن بيئته إنما تدرسه كجزء لا يتجزأ من محيطه بكل ما يحوي من جوانب بيولوجية، جسدية نفسية، ثقافية واجتماعية. تتناول الأنثروبولوجيا موضوعات مختلفة ومتداخلة مع موضوعات العلوم الأخرى، إلا أنها ذات عالقة وطيدة بحياة الإنسان، حيث تبحث الأنثروبولوجيا في المبادئ التي تحكم تطور الإنسان فيزيقيا وثقافيا، كما تبحث في التنوع الثقافي واللغوي عند الإنسان، وتحاول أيضا معرفة جوانب السلوك الاجتماعي والثقافي... الخ . وقد قسمت الأنثروبولوجيا وفق نشأتها وتطورها إلى مراحل حسب العصور التي وجدت فيها اللبئات الأولى لمفهوم الأنثروبولوجيا، فقد تميزت الأنثروبولوجيا في العصر القديم في أعمال بعض المجتهدين في الحضارات المختلفة (الإغريقية، الرومانية، الصينية) والذين صوروا لنا أحلام الشعوب في تلك الفترات، أما الأنثروبولوجيا في العصور الوسطى فقد اعتمدت على الوصف والخيال في أوروبا وعلى الخبرات والمشاهدات في العالم الإسلامي حيث بدأت بوادر الحضارة الإسلامية تنتشر خصوصا بعد الفتوحات الإسلامية الأمر الذي سمح بتطوير العلوم بصفة عامة والمنهج الأنثروبولوجي على وجه الخصوص فيما بعد . يرى الأنثروبولوجيون الأوروبيون أن الأصول النظرية للأنثروبولوجيا ظهرت في عصر النهضة الأوروبية بالموازاة مع انتشار الكشوفات الجغرافية، وتبع ذلك الانتقال من المنهج الفلسفي إلى المنهج التجريبي في دراسة الظواهر الطبيعية و الاجتماعية، كل ذلك ساهم في بلورة الأنثروبولوجيا في نهاية القرن 19 كعلم قائم توطره عدة نظريات لكل منها رؤيتها وموقفها ومنهجها وتفسيرها لجوانب حياة الإنسان المختلفة.

مفهوم الأنثروبولوجيا

قبل تعريف الأنثروبولوجيا تجدر الإشارة إلى تعدد التعريفات واختلافها وتشعبها فيما يخص هذا المصطلح، ويرجع ذلك بالأساس إلى اتساع فروعه ومجالاته فضلا عن الشمولية التي يتميز بها وعليه فالتعريفات قد تتفق في أحيان وقد تختلف وتتداخل في أحيان أخرى فإذا نظرنا في كلمة أنثروبولوجيا من الناحية الاشتقاقية وجدناها مشتقة من الكلمة الإغريقية "Anthropos" أي الإنسان واللفظة و log أي العلم... أي أن معناها اللفظي هو دراسة الإنسان، لذا يحاول الأنثروبولوجيون دراسة الإنسان وكل أعماله،

كذلك نجد في المعاجم العربية تعريفا يقدم الأنثروبولوجيا بأنها علم الإنسان، وهو علم يبحث في أصل الجنس البشري، وتطوره وأعرافه وعاداته ومعتقداته وفي السلالات البشرية وخصائصها ومميزاتها، و الانثروبولوجيا كذلك هي علم دراسة الجماعات الإنسانية وسلوكها وإنتاجها.

تهتم الأنثروبولوجيا بدراسة جوانب البشر في المجتمعات الماضية والحاضرة كافة، وتفاعل تلك الجوانب وتطورها عبر الزمان والمكان، وكيفية تكيف البشر مع البيئات المتباينة واختلاطهم وتواصلهم معا و ما تنتجه نشاطاتهم من أنماط ووظائف وعلاقات اجتماعية مختلفة . ويتم الإشارة إلى علم الإنسان بعدة مسميات من بينها: علم الإنسان، علم الجماعات البشرية وسلوكياتها أو علم الحضارات والمجتمعات البشرية، ومن المعروف عن علم الانثروبولوجيا أنه علم عام يتفرع منه أقسام متعددة، والانثروبولوجيا لا تدرس الإنسان بوصفه إنسانا وحيدا وإنما بوصفه كائنا اجتماعيا يحيا في مجتمع ينتمي إليه ويتفاعل مع بشر آخرين . كما تعرف الانثروبولوجيا أيضا بأنها العلم الذي يدرس الإنسان من حيث هو كائن عضوي حي يعيش في مجتمع تسوده نظم وأنساق اجتماعية في ظل ثقافة معينة... ويقوم بأعمال متعددة، ويسلك سلوكا محددا، وهو أيضا العلم الذي يدرس الحياة البدائية، والحياة الحديثة المعاصرة، ويحاول التنبؤ بمستقبل الإنسان معتمدا على تطوره عبر التاريخ الإنساني أي الطويل... ولذا يعتبر علم دراسة الإنسان علما متطورا يدرس الإنسان وسلوكه وأعماله . الدراسة المتكاملة للإنسان بما يحويه من جوانب سيكولوجية وبيولوجية وفسيولوجية وثقافية واجتماعية . يعني ذلك أن الانثروبولوجيا لا تعنى بدراسة الإنسان ككائن معزول أو مفصول عن بيئته ومحيطه وبني جنسه إنما تدرسه بكل ما يحوي من جوانب بيولوجية، جسدية، نفسية، ثقافية واجتماعية.

يقول محمد الجوهري في هذا الإطار أن الأنثروبولوجيا "هي أكثر العلوم التي تدرس الإنسان وأعماله شمولاً على الإطلاق، هناك دلائل وشواهد عديدة على هذا الشمول فالانثروبولوجيا تجمع في علم واحد بين نظرتي كل من العلوم البيولوجية والعلوم الاجتماعية، فتركز مشكلاتها من ناحية على الإنسان كعضو في المملكة الحيوانية، وعلى سلوك الإنسان كعضو في مجتمع، من ناحية أخرى فالانثروبولوجيا بوصفها دراسة للإنسان في أبعاده المختلفة البيوفيزيائية (الحمض النووي من وظيفة الخلية الحية والوظائف الحيوية في جسم الإنسان والاجتماعية والثقافية فهي علم شامل يجمع بين ميادين ومجالات متباينة ومختلفة بعضها عن بعض. اختلاف علم التشريح عن تاريخ تطور الجنس البشري والجماعات العرقية، وعن دراسة النظم الاجتماعية من سياسية واقتصادية وقروية ودينية وقانونية وما إليها... وكذلك عن الإبداع الإنساني في

مجالات الثقافة المتنوعة التي تشمل، التراث الفكري وأنماط القيم وأنساق الفكر الإبداع الأدبي والفني بل والعادات والتقاليد ومظاهر السلوك في المجتمعات الإنسانية المختلفة، وإن كانت لا تزال تعطي عناية خاصة للمجتمعات التقليدية.

ولعل التعريف الذي وضعه الدكتور شاكر سليم في قاموس الانثروبولوجيا يختزل ثراء تعريفات هذا العلم واتساع توصيفه في قوله " إن الأنثروبولوجيا هي علم دراسة الإنسان طبيعيا واجتماعيا و حضاريا . ونعرض فيما يلي بعض التعريفات التي وضعها العلماء الأمريكيون على النحو التالي يقول BOAS بواس: "تدرس الانثروبولوجيا الإنسان ككائن اجتماعي ويشمل موضوع دراستها جميع ظواهر الحياة الاجتماعية الإنسانية، دون تحديد زمني أو مكاني . "ويقول كروبر "Kroeber" الانثروبولوجيا هي علم دراسة جماعات الناس وسلوكهم وإنتاجهم وهي "أساسا علم خاص بدراسة التاريخ الطبيعي لمجموع أوجه النشاط البشري التي أصبحت منجزاتها الراقية في المجتمعات المتمدنة- منذ زمن بعيد- ميدانا للعلوم الإنسانية، هذا على الرغم من أن الهدف والمنهج الانثروبولوجي طبيعي، حتى عند تطبيقه على المادة البشرية أو ما دون البشرية ويعرفها لينتون Linton وهيرسكوفيتش Herskovits بأنها: "دراسة الإنسان وأعماله"، وهكذا تهدف الأنثروبولوجيا إلى فهم الإنسان من خلال دراسة عدة ميادين علمية قد تكون مستقلة ولكنها متصلة ببعضها البعض و يجمعها علم واحد

هناك قسمان رئيسان للأنثروبولوجيا هما: الانثروبولوجيا الطبيعية، والانثروبولوجيا الثقافية، ويندرج تحت القسم الثاني ميادين الاثنوغرافيا، الإثنولوجيا، وفي بعض الأحيان أيضا ما لم تكن مستقلة عنها بعض الشيء - الآثار والفلكلور واللغويات والانثروبولوجيا الاجتماعية.

موضوع الانثروبولوجيا:

تتناول الانثروبولوجيا مجموعة من الموضوعات ذات العلاقة بحياة الإنسان إلا أنها تتباين في مستوياتها وأولوياتها من باحث إلى آخر. وفي هذا الصدد كتبت الباحثة الانثروبولوجية الأمريكية مارجريت ميد mead Margaret (1901 - 1979) تقول "نحن نصف الخصائص الإنسانية البيولوجية والثقافية للنوع البشري عبر الأزمان وفي سائر الأماكن، ونحلل الصفات البيولوجية والثقافية المحلية، كأنساق مترابطة ومتغيرة، وذلك عن طريق نماذج ومقاييس ومناهج متطورة. كما نهتم بوصف وتحليل النظم الاجتماعية والتكنولوجية، ونعني أيضا ببحث الإدراك العقلي للإنسان، وابتكاراته ومعتقداته ووسائل

اتصالاته، إن التخصصات الانثربولوجية التي قد تتضارب مع بعضها، هي في ذاتها مبعث الحركة والتطور في هذا العلم. فعلم الانثربولوجيا يركز اهتمامه على الإنسان ويحاول فهم الظواهر المختلفة المؤثرة فيه، كما يحاول فهم طبيعة هذا الإنسان وسلوكه وقد حاول الباحث محمد الجوهري عرض الموضوع الأساسي الذي تقوم عليه البحوث الانثربولوجية عن طريق طرح مجموعة من الإشكاليات كالتالي:

تقوم البحوث الانثربولوجية بالبحث عن مجموعة من المبادئ التي تحكم تطور الإنسان فيزيقيا وثقافيا ولماذا تغير التركيب الفيزيقي للإنسان؟ لماذا توجد أنماط بشرية متميزة بمثل هذه الكثرة برغم أصلها المشترك جميعا؟ وإذا لم يكن التنوع الثقافي واللغوي عند الإنسان نتيجة فروق متوارثة بيولوجيا في السلوك، فما هو السبب في تلك الفروق الواسعة المتعددة في اللغات وفي الثقافات...؟ وما هي طبيعة الثقافة؟ وكيف تتغير الثقافات؟ وما هي العلاقة المنهجية المنظمة بين مختلف جوانب السلوك الاجتماعي والثقافي للإنسان؟ كيف يستجيب الأفراد للمثل العليا والأهداف التي تحددها لهم الثقافات؟ ما هي العلاقة بين الثقافة والشخصية. "وتأسيسا على ما تقدم فإن الأنثربولوجيا هي العلم الذي يدرس الإنسان ويدرس أوجه الشبه وأوجه الاختلاف بينه وبين الكائنات الحية الأخرى من جهة، وأوجه الشبه والاختلاف بين الإنسان وأخيه الإنسان من جهة أخرى وفي الوقت ذاته يدرس السلوك الإنساني ضمن الإطار الثقافي والاجتماعي بوجه عام، فلا تهتم الأنثربولوجية بالإنسان الفرد، كما تفعل الفيزيولوجيا أو علم النفس وإنما تهتم بالإنسان الذي يعيش في جماعات وأجناس وتدرس الناس في أحداثهم وأفعالهم الحياتية. أما بالنسبة لمحمد حسن غامري فإنه يرى أن موضوع علم الانثربولوجيا هو دراسة الإنسان سواء كان في الأزمنة السحيقة أو المعاصرة، وذلك بالتركيز على بحث ودراسة طرق حياة الناس الذين كانوا يعيشون في الماضي السحيق، وكذلك طرق حياة الناس في الزمن المعاصر وهو بذلك لا يبتعد كثيرا عن محمد الجوهري.

أهداف الأنثربولوجيا :

استنادا إلى مفهوم الأنثربولوجيا وموضوعها، فإن دراستها تحقق مجموعة من الأهداف يمكن حصرها في الأمور التالية :

-وصف مظاهر الحياة البشرية والحضارية وصفا دقيقا وذلك عن طريق معايشة الباحث المجموعة أو الجماعة المدروسة وتسجيل كل ما يقوم به أفرادها من سلوكيات في تعاملهم في الحياة اليومية .

-تصنيف مظاهر الحياة البشرية والحضارية بعد دراستها دراسة واقعية، وذلك للوصول إلى أنماط إنسانية عامة، في سياق الترتيب التطوري الحضاري العام للإنسان: (بدائي -زراعي صناعي - معرفي - تكنولوجي).

- تحديد أصول التغير الذي يحدث للإنسان وأسباب هذا التغير وعملياته بدقة علمية ...وذلك بالرجوع إلى التراث الإنساني وربطه بالحاضر من خلال المقارنة، و إيجاد عناصر التغير المختلفة.

- استنتاج المؤشرات والتوقعات اتجاه التغير المحتمل، في الظواهر الإنسانية الحضارية المدروسة، والتصور بالتالي إمكانية التنبؤ بمستقبل الجماعة البشرية التي أجريت عليها الدراسة.

نشأة الأنثروبولوجيا:

قسم توماس بنيمان penniman. T (و هو انجليزي) تاريخ الانثروبولوجيا إلى خمس مراحل وفترات رئيسية إذ يعتبر بنيمان الانثروبولوجيا قبل عام 1835 تقريبا قد مرت بمراحل تمهيدية منذ العصور القديمة، فالانثروبولوجيا لم تبرز كفرع جديد للمعرفة في نظره إلا من خلال الفترة من عام 1835 حتى 1859 ،أما خلال الفترة 1859 إلى 1900 أي إبان نصف قرن تقريبا على حد تقسيمه- فقد تأسست الانثروبولوجيا كعلم أكاديمي، تلي ذلك المرحلة الرابعة مع أوائل القرن العشرين واستمرت حتى منتصف الثلاثينيات (1935) وفيها مرت الأنثروبولوجيا بمرحلة التأصيل، أما المرحلة الخامسة التي بدأت منذ عام 1935 حتى نهاية الخمسينات تقريبا فهي ولا شك مرحلة التدعيم والتثبيت لعلم الانثروبولوجيا وتخصصاته المتعددة، كما قسمت الانثروبولوجيا وفق نشأتها وتاريخ تطورها إلى ثالث مراحل حسب العصور التي وجدت فيها اللبنة الأولى لمفهوم الانثروبولوجيا على النحو التالي :

-الانثروبولوجيا في العصر القديم

-الانثروبولوجيا في العصور الوسطى

-الانثروبولوجيا في عصر النهضة .

علاقة الأنثروبولوجيا بالعلوم الأخرى: على الرغم من الاعتراف بالأنثروبولوجيا كعلم مستقل بذاته يدرس الإنسان من حيث نشأته وتطوره وثقافته فإن له عالقة وطيدة بكثير من العلوم الأخرى وسنبين صلة علم الأنثروبولوجيا ببعض العلوم على النحو التالي:

-الأنثروبولوجيا وعلم الفيزياء والكيمياء: تتجسد العلاقة بين الأنثروبولوجيا وعلمي الفيزياء والكيمياء، في الاستعانة بهما في تحليل المواد التي صنعت بها الأدوات الخزفية، وأدوات الأكل والإنتاج والتحف، وحتى تحليل ظاهرة تحنيط الأجسام القابلة للانحلال في العصور القديمة (وبتحليل مكونات هذه الأدوات يمكن الوصول إلى استخلاصات ونتائج حول العصور التي مرت بها البشرية وطبيعتها وخصائصها ومعالم الانتقال من عصر إلى آخر.

الأنثروبولوجيا والفن: تتجسد علاقة الأنثروبولوجيا بالفن في دارستها فنون ورسوم وشعر وأدب وتراث وفلكلور الشعوب المختلفة، إذ نستطيع القول أن الفن هو أحد موضوعات الأنثروبولوجيا الرئيسة وبيان مدى تأثير أشكال المرح والفرح والاحتفال على النظم الاجتماعية المختلفة وعلى الثقافة والقيم التي يحملها المعتقدات الدينية. وتحليل مثل هذه الرموز الفنية يفيد في فهم نمط التفكير لدى أصحاب هذا الفن وبالتالي طبيعة السلوك الاجتماعية .

-الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع: هناك روابط وصلات كثيرة بين الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع، بالنظر إلى أن كمال منهما يدرس نفس المشكلات الأساسية مثل الثقافة: والنظم الاجتماعية، والقرابة والزواج والأسرة...الخ، إلا أن تناول مثل هذه الموضوعات يختلف من علم إلى آخر. فنظرة الأنثروبولوجي هي نظرة شاملة فهو يدرس مختلف الموضوعات في كليتها بينما نظرة علم الاجتماع متخصصة إلى حد بعيد. ومن الناحية المنهجية فثمة اختلاف منهجي بين العلمين فالباحث في علم الاجتماع يعتمد على افتراضات نظرية للدراسة ويضع المتغيرات الاجتماعية ويحاول التحقق منها من خلال المعلومات التي يجمعها بواسطة استبيان نجد في المقابل أن الباحث الأنثروبولوجي يعتمد على تشخيص الظاهرة استنادا إلى فهم الواقع كما هو ومن خلال الملاحظة المباشرة ومشاركة الأفراد في حياتهم العادية.

-الأنثروبولوجيا وعلم الأحياء: يتناول علم الأحياء دراسة الكائنات الحية من الخلية الأبسط إلى الأكثر تعقيدا، ويرتبط علم الأحياء بالعلوم الطبيعية ولا سيما علم التشريح ووظائف الأعضاء .وتكمن العالقة بين العلمين في دراسة أحجام جمجمة الإنسان والأعضاء الأخرى التي عثر عليها في المقابر أو الحفريات،

لمعرفة الشكل الذي كان عليه الإنسان القديم، والتطورات التي طرأت عليه، وكذلك الحيوانات التي استألفها وانقرضت والأخرى التي كان يصطادها بغرض الغذاء..

الأنثروبولوجيا وعلم النفس: يلتقي علم النفس مع علم الأنثروبولوجيا في دراسة السلوك، لكنهما يختلفان في طريقة البحث وسياقه، فالأنثروبولوجيا تدرس السلوك في سياقه التاريخي، وكيف أثرت عليه عوامل مختلفة في جذوره الماضية، وما مدى استمرار مثل هذه التأثيرات في حاضر المجتمعات الإنسانية، كتأثير الثقافة والنبات والحيوان على تشكيل أنماط السلوك لدى الجماعات البشرية الغابرة. في حين نجد أن علم النفس أيضا يدرس السلوك لكن في سياقه الحاضر أو الجاري وبالتالي يعتمد على الملاحظة والمسح الاجتماعي والتجريب والمنهج الوصفي في تحليل السلوك الإنساني.

- الأنثروبولوجيا واللسانيات: أصبحت استعانة الأنثروبولوجيا باللسانيات ضرورة معرفية ومنهجية ملحة وذلك لما قد يجده الباحث الأنثروبولوجي في الدراسات اللسانية من أدوات وتقنيات مفيدة له والتي تشكل محطة أساسية لا بد من المرور عبرها من أجل اقتحام البناء الاجتماعي والثقافي والعقائدي للشعوب فاللغة هي جزء مهم من ثقافة أي شعب وميوله واتجاهاته الفكرية العامة بل هي تقيس تطوره الفكري والاجتماعي. تلعب اللغة والدراسات اللغوية دورا مهما في تدعيم البحث الأنثروبولوجي حيث تمكنه من جمع وتسجيل العناصر الثقافية والتي تنتقل من جيل إلى آخر، هذا من جهة ومن جهة أخرى، فإن المعرفة اللغوية تبقى أساسية وضرورية للباحث الميداني الذي يبقى مطالبا بمعرفة لغة الأهالي من أجل الاتصال والتواصل معهم ومعرفة أشكالهم التعبيرية من أغاني وحكايات وأساطير وأمثال وحكم وألغاز وأشعار ونكت، معرفة مباشرة دون اللجوء إلى الدليل أو المترجم.

-الأنثروبولوجيا وعلم الآثار: يقوم علم الآثار بدور معرفي ومنهجي لا يستهان به في البحث الأنثروبولوجي، حيث يزود الباحث بطاقات علمية ووسائل تقنية مفيدة تساعده على معرفة ما في موضوعه وإبراز بعض خصوصياته المادية والمعنوية الأولى، وذلك باستنطاق الآثار القديمة المتبقية والوسائل الحضارية التي أبدعا وصنعها الأقدمون وظلت بعض بقاياها حية كعالمات دالة على حضارة وثقافة قد اندثرت وانقرضت أو هي في طريق الزوال بفعل عامل الزمن أو الحروب أو الكوارث الطبيعية. يستفيد الباحث الأنثروبولوجي بل يعتمد في أكثر الأحيان على أعمال وتقنيات ونظريات وأطروحات ونتائج الباحث في علم الآثار الذي يبحث كما هو معروف في مختلف المراحل التطورية للثقافة الإنسانية، حيث يحدد معالم تفكير الإنسان الأول ويدرس مخلفاته ويتبع هذه المخلفات والبقايا ويدرس تطوراتها من حالاتها

البداية الأولى إلى حالتها الراقية في بداية العصر التاريخي، حيث اكتشف الإنسان الكتاب وتوصل إلى حضارة اللغة وعبر الإنسان عن حضارته وثقافته لغويا باستخدام الكتابة إن اعتماد الانثربولوجي على علم الآثار مكنه من التعمق والغوص أكثر ثقافات وحضارات وتاريخ الشعوب من الزاوية الأثرية عن طريق تحليل دلالاتها

-علاقة الانثربولوجيا بعلم الفلسفة: تعود كلمة (فلسفة) إلى الأصل اليوناني المكون من مقطعين فيلو Philo وسوفيا Sophy أي فيلوسوفيا Philosophy، وتعني حب الحكمة أو محبة الحكمة، وعلى الرغم من أصلها الاشتقاقي، فقد اتخذت عند أرسطو معنى أكثر دقة وشمولا حيث عرفها بأنها " علم المعنى الأكثر شمولاً الكلمة علم ". وإذا كانت الفلسفة أم العلوم كما كانت تسمى بالنظر لشمولية دراستها مجموعة من العلوم الرياضية والإنسانية والفيزيائية، فإن صلة الانثربولوجيا بها وثيقة جداً، ولا سيما فيما يتعلق بنظرة الإنسان إلى الكون والحياة، في زمان ما أو مكان محدد، وذلك ألن الزمان والمكان مرتبطان بعلاقة جدلية، لا يمكن إدراك مكوناتها إلا من خلال دراسة الفعل الإنساني الذي يسعى إلى البقاء والاستمرار فدراسة أصل الإنسان ونشأته حياته وسعيه إلى البقاء والخلود وما ينجم عن ذلك من تطور وتغير مستمرين كلها تقع في ميدان الدراسات الأنثروبولوجية ولا سيما تلك العالقة الأزلية بين طبيعة الإنسان، وواقعة وما يطمح إليه من آمال وأهداف مؤمن بسيرورة حياته.

مدخل لأنثربولوجيا الثقافية:

الأنثربولوجيا الثقافية هي فرع رئيسي من علم الإنسان (Anthropology) يركّز على دراسة الثقافات البشرية، معتقداتها، ممارساتها، وبناء المجتمعات وتطورها عبر الزمن والمكان، تهدف إلى فهم التنوع البشري والسلوكيات الاجتماعية، معتمدة على البحث الميداني الوصفي وتحليل الرموز والقيم.

كما تعرّف الأنثربولوجيا الثقافية -بوجه عام - بأنها العلم الذي يدرس الإنسان من حيث هو عضو في مجتمع له ثقافة معيّنة. وعلى هذا الإنسان أن يمارس سلوكاً يتوافق مع سلوك الأفراد في المجتمع (الجماعة) المحيط به، يتحلّى بقيمه وعاداته ويدين بنظامه ويتحدّث بلغة قومه. ولذلك، فإنّ الأنثربولوجيا الثقافية : هي ذلك العلم الذي يهتم بدراسة الثقافة الإنسانية، ويعنى بدراسة أساليب حياة الإنسان وسلوكاته النابعة من ثقافته، وهي تدرس الشعوب القديمة، كما تدرس الشعوب المعاصرة.

الأنثروبولوجيا الثقافية إذن تهدف إلى فهم الظاهرة الثقافية وتحديد عناصرها، كما تهدف إلى دراسة عمليات التغيير الثقافي والتمازج الثقافي، وتحديد الخصائص المتشابهة بين الثقافات، وتفسّر بالتالي المراحل التطورية لثقافة معيّنة في مجتمع معيّن.

ولهذا استطاع علماء الأنثروبولوجيا الثقافية أن ينجحوا في دراساتهم التي أجروها على حياة الإنسان، سواء ما اعتمد منها على التراث المكتوب للإنسان القديم وتحليل آثارها، أو ما كان منها يتعلّق بالإنسان المعاصر ضمن إطاره الاجتماعي المعاش . وهذا يدخل - إلى حدّ بعيد - فيما يسمّى (علم اجتماع الثقافة) والذي يعني تحليل طبيعة العلاقة بين الموجود من أنماط الإنتاج الفكري، ومعطيات البنية الاجتماعية.

ثانياً- نشأة الأنثروبولوجيا الثقافية ومراحل تطوّرها :

لم تظهر الأنثروبولوجيا الثقافية كفرع مستقلّ عن الأنثروبولوجيا العامة، إلّا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

وربّما يعود الفضل في ذلك إلى العالم الإنكليزي / إدوارد تايلور / الذي يعدّ من رواد الأنثروبولوجيا، والذي قدّم أول تعريف شامل للثقافة عام 1871 في كتابه " الثقافة البدائية " . وقد مرّت الأنثروبولوجيا الثقافية بمراحل متعدّدة، منذ ذلك الحين حتى وصلت إلى ما هي عليه في العصر الحاضر، وهذه المراحل هي:

مرحلة البداية : وتمتدّ من ظهور هذه الأنثروبولوجيا وحتى نهاية القرن التاسع عشر، وكانت عبارة عن محاولات لرسم صورة عامة لتطوّر الثقافة منذ القدم، والبحث أيضاً عن نشأة المجتمع الإنساني. وظهر في هذه الفترة إلى جانب العالم الإنكليزي تايلور ، العالم الأمريكي بواز الذي أخذ بالاتجاه التاريخي في دراسة الثقافات الإنسانية، وذلك من جانبين ؛ أولهما : إجراء دراسات تفصيلية لثقافات مجموعات صغيرة، كالقبائل والعشائر، ومراحل تطوّرها .

وثانيهما : أجراء مقارنة بين تاريخ التطوّر الثقافي، عند مجموعة من القبائل، بغية الوصول إلى قوانين عامة أو مبادئ، تحكم نمو الثقافات الإنسانية وتطوّرها. وهذا ما يعطي أهميّة للأنثروبولوجيا باعتبارها علماً له منهجيّته الخاصّة .

المرحلة الثانية : وتقع ما بين (1900 - 1915 م)، وتعدّ المرحلة التكوينية، حيث تركّزت الجهود في الأبحاث والدراسات، على مجتمعات صغيرة محدّدة لمعرفة تاريخ ثقافتها ومراحل تطوّرها، وبالتالي تحديد عناصر هذه الثقافة قبل أن تنقرض .

واستناداً إلى ذلك، جرت دراسات عديدة على ثقافة الهنود الحمر في أمريكا، وتوصّل الباحث الأمريكي **وسلر** إلى أسلوب يمكن بواسطته من دراسة أي إقليم أو منطقة في العالم تعيش فيها مجتمعات ذات ثقافات متشابهة، أو ما أصطلح على تسميته بـ (المنطقة الثقافية). وقد شبّه وسلر المنطقة الثقافية بدائرة، تتركز معظم العناصر الثقافية في مركزها، وتقلّ هذه العناصر كلّما ابتعدت عن المركز.

المرحلة الثالثة : وتقع ما بين (1915- 1930 م) وتعدّ فترة الازدهار، حيث تميّزت بكثرة البحوث والمناقشات في القضايا التي تدخل في صلب علم الأنثروبولوجيا الثقافية، ولا سيّما تلك الدراسات التي تركّزت في أمريكا .

ويرجع ازدهار الأنثروبولوجيا في تلك الفترة، إلى نضج هذا العلم ووضوح مفاهيمه ومناهجه. وترافق ذلك بازدهار المدرسة التاريخية في أمريكا، وظهور المدرسة الانتشارية في إنكلترا، ولا سيّما بعد الأخذ بمفهوم (المنطقة الثقافية) الذي طرحه وسلر كإطار لتحليل المعطيات الثقافية وتفسيرها، والتوصّل إلى العناصر المشتركة بين الثقافات المتشابهة.

المرحلة الرابعة : ومدّتها عشر سنوات فقط، وتقع ما بين (1930- 1940 م). وعلى الرغم من قصر مدّتها، فقد أطلق عليها الفترة التوسّعية، حيث تميّزت باعتراف الجامعات الأمريكية والأوروبية بالأنثروبولوجيا الثقافية كعلم خاص في إطار الأنثروبولوجية العامة، وخصّصت لها فروع ومقرّرات دراسية في أقسام علم الاجتماع في الجامعات.

وظهرت في هذه الفترة النظرية (التكاملية) التي تبناها سابير عالم الاجتماع الأمريكي، واستطاع من خلالها تحديد مجموعة متناسقة من أنماط السلوك الإنساني، والتي يمكن اعتمادها في دراسة السلوك الفردي، لدى أفراد مجتمع معيّن، حيث أنّ جوهر الثقافة هو في حقيقة الأمر، ليس إلّا تفاعل الأفراد في المجتمع بعضهم مع بعض، وما ينجم عن هذا التفاعل من علاقات ومشاعر وطرائق حياتية مشتركة . وقد تأثّرت الأنثروبولوجيا في هذه الفترة- إلى حدّ بعيد- بالأنثروبولوجيا الاجتماعية، ولا سيّما في مفاهيمها ومناهجها، وذلك بفضل الأبحاث التي قام بها كلّ من **مالينوفسكي** و**براون** في مجالات الأنثروبولوجيا الاجتماعية .

المرحلة الخامسة : وهي الفترة المعاصرة التي بدأت منذ عام 1940، وما زالت حتى الوقت الحاضر. وتمتاز هذه المرحلة بتوسّع نطاق الدراسات الأنثروبولوجية، خارج أوروبا وأمريكا، وانتشار الأنثروبولوجيا الثقافية في العديد من جامعات الدول النامية، في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية.

وترافق ذلك مع ظهور اتجاهات جديدة في الدراسات الأنثروبولوجية، كان الاتجاه القومي في مقدّمة هذه الاتجاهات الحديثة في الأنثروبولوجيا الثقافية، والذي يهدف إلى تحديد الخصائص الرئيسة للثقافة القومية.

مدخل لأنثروبولوجيا التربية:

تعريف أنثروبولوجيا التربية: فرع من فروع الأنثروبولوجيا (وتحديدا الأنثروبولوجيا الثقافية) يدرس الثقافة والتنشئة والتعليم وكيف تؤثر القيم والعادات والبنى الاجتماعية في العملية التربوية ، كما تدرس كيف تنتقل المجتمعات ثقافتها من جيل لآخر، ودور المدرسة في تشكيل الهوية ، وتعنى بدراسة تأثير اللغة والدين والطبقة الاجتماعية على التعلم...الخ.

تعريف آخر: الأنثروبولوجيا التربوية فرع ناشئ من الأنثروبولوجيا الثقافية تحديدا، وهي فرع علمي يوظف المناهج الأنثروبولوجية في دراسة الظواهر التربوية ومؤسسات التنشئة الاجتماعية على نحو شمولي وكلي. ويمكن القول في هذا السياق إن الأنثروبولوجية التربوية قد نشأت وتطورت تحت مظلة الأنثروبولوجيا الثقافية التي غالبا ما تركز على العلاقة الجوهرية بين الشخصية والثقافة.

نشأتها :

نشأت الأنثروبولوجيا التربوية كفرع تطبيقي للأنثروبولوجيا الثقافية في منتصف القرن العشرين (الخمسينيات) متأثرة بدراسات الثقافة والشخصية والتربية (مثل أعمال مارغريت ميد) واستقلت كعلم يطبق المناهج الانثوغرافية الشمولية لدراسة الظواهر التربوية والتنشئة الاجتماعية والمدرسة كمؤسسة ثقافية ،حيث يعتبر كتاب **التربية والثقافة** لجورج ويلز سبنذر Spindler سنة 1955.

مواضيع الأنثروبولوجيا الثقافية:

-دراسة التربية كعملية ثقافية

-التنشئة الاجتماعية كيف يكتسب الطفل القيم والمعايير من المجتمع(انتقال الثقافة)

-الثقافة المدرسية

-العلاقة بين المدرسة والأسرة

-تحليل طقوس وممارسات الحياة المدرسية.

-التعدد الثقافي: تعليم الأقليات والاختلافات الثقافية

-السلطة والمعرفة: من يحدد ماذا ندرس ولماذا؟

مناهج الأنثروبولوجيا التربوية:

يشكل المنهج الوصفي الإثنوغرافي والبحث الميداني الحقل الذي يقوم على التفاعل المباشر مع الظاهرة المدروسة المنهج الأساسي للأنثروبولوجيا والأنثروبولوجيا التربوية الذي يركز على مبدأ المشاركة الحية للباحثين في فعاليات الظاهرة المدروسة. ويتطلب هذا المنهج فترة طويلة من الزمن يتوجب فيها على الباحث معيشة الظاهرة والتفاعل معها وفي الحدود الدنيا أن سجل نسبة كبيرة من الحضور الزمني للتعايش الفعلي مع معطيات الظاهرة المدروسة. وتتجلى هذه الممارسة المنهجية في دراسة الأحياء الشعبية والقرى وبعض المناطق النائية وهذا ينسحب أيضا على المؤسسات المدرسية والتربوية بصورة عامة.

ويمكن القول بأن التعايش مع الظاهرة والمشاركة في أحداثها أمر ضروري يفرضه منهج البحث المعتمد في ميدان الظاهرة الأنثروبولوجية، فالمنهج الأنثروبولوجي يوجب على الباحث أن يتعايش مع القضايا التي يدرسها وأن يقوم بجمع المعلومات بطريقة مباشرة وحية في ميدان الظاهرة المدروسة حيث يتعايش بصورة طبيعية مع أحداثها، ويستكشف على نحو أعمق مختلف الملاحظات التي تتعلق بمجرباتها، وهذا المنهج يمكن الباحث من الحصول على معلومات حيوية عبر التفاعل والحوار والتساؤل والتفاعل واستخدام الاستبانة، وذلك حينما يكون الباحث قادرا على استخدام لغة المعنيين بالدراسة ومدركا لمختلف العناصر الثقافية والذهنيات التي تسود في دائرة الجماعة المدروسة.

ويتميز المنهج الأنثروبولوجي بارتكازه الأساسي على تقنية المشاركة الحية والتفاعل المباشر مع الظاهرة قيد الدراسة، وهو بذلك يتصف بالبساطة والعفوية. ولكن هذا المنهج الوصفي الأنثروبولوجي يعتمد تقنيات أخرى مختلفة لأداء البحث العلمي في أكمل صورة متوخاة له. فالأنثروبولوجيون يعتمدون في أداء عملهم البحثي الاستبانة والمقابلة والوصف والوثائق والسير الذاتية والملاحظة والمقارنة وكل الأدوات التي تساعد في استكشاف أبعاد الظاهرة المدروسة واستقرائها، كما يستخدمون التسجيل الصوتي والمرئي والتدوين المستمر للملاحظات، ويضاف إلى ذلك أن هذا المنهج يعتمد في كثير من فعالياته على جمع البيانات الكمية لاستكمال الصورة الحقيقية للظاهرة المدروسة.

ويؤكد مالمينوفسكي في هذا الخصوص على ضرورة أن يتعايش الباحث الأنثروبولوجي مع المجتمع المدروس، لأنه كما يعتقد لا يمكن فهم الحياة الاجتماعية لدى شعب من الشعوب البدائية إلا إذا درست دراسة عميقة ومركزة تقوم على اندماج الباحث في داخل الجماعة المدروسة والتفاعل معها حتى يصبح وكأنه أحد أفرادها في مختلف مستويات تفاعلها الثقافي والاجتماعي والأخلاقي. وقد نفذ مالمينوفسكي تأكيده هذا عندما درس قبائل "التروبرياندر" إحدى قبائل شرق آسيا الكبيرة، دراسة مطولة استغرقت أربع سنوات، وكان أول من استخدم لغة الأهالي في جمع المعلومات. وقد أتاحت له هذه المدة الطويلة فرصة التعمق والتغلغل في الحياة الاجتماعية لتلك القبائل.

يمكن الإشارة إلى وجود عدة أنماط من البحوث الإثنوغرافية الوصفية للأنثروبولوجيا التربوية. ويمكن التمييز في هذا الخصوص بين ثلاثة أنماط أساسية:

- فهناك البحوث الوصفية الشمولية حيث يقوم الباحث بتقديم وصف شمولي لمختلف جوانب الحياة والوجود للجماعة المعنية بالدراسة سواء أكانت هذه الجماعة جماعة مدرسية (فصل مدرسي) أو مدرسة، أو جماعة اقران مدرسية، أو جماعة من المعلمين. ويكون هذه البحث في هذا المستوى تقديم وصف كامل لمختلف المعطيات والنقاطات والمضامين بالجماعة موضوع البحث، وهذا النوع من البحوث يركز على وصف العادات والذهنيات والعقائد والنشاطات ومختلف الفعاليات التي تتصل بالجماعة موضوع الدراسة.

- وهناك البحوث التي تركز على جانب معين من جوانب حياة الجماعة مثل: العقيدة، أو التعليم، أو الإبداع، أو التفاعل المدرسي، أو العنف المدرسي، فالتركيز هنا يكون حول قضية ما معينة يتم الخوض في مختلف جوانبها وعواملها ومتغيراتها.

- أما النوع الثالث من البحوث فيتمثل في التركيز على فرضية بحثية يقوم الباحث الأنثروبولوجي باختبارها والتأكد من معطياتها وقد تكون هذه الفرضية جديدة أو مستمدة من بحوث أنثروبولوجية سابقة، والمهم في الأمر أن جهود الباحث تدور حول الفرضية دون غيرها من القضايا التي تتصل بالظواهر المدروسة.

ويمكن أن نجد تصنيفات أخرى للبحث العلمي في مجال الأنثروبولوجيا التربوية، فهناك البحوث الشمولية "الماكروانثروبولوجي" Macroanthropologie وهناك البحوث التي تأخذ طابعا مصغرا لجماعة محددة أو مجال مصغر ويطلق عليها "الميكروانثروبولوجي" Microanthropologie.